وقد برهنت هذه المعاهدة عن النوايا الاستعمارية واسلوب الخداع لتحقيقها، حيث كانت بريطانيا تفاوض العرب واعدة اياهم بالاستقلال والتخلص من الحكم العثماني، وكانت مراسلات الحسين ـ مكماهون تدخل جوهرياً في هذا الاطار. وكان للثورة البلشفية في روسيا الفضل الاول في الكشف عن هذه المعاهدة واسرارها. وانطلاقاً من ادراك بريطانيا لاهمية المنطقة العربية وموقعها المتحكم في العالم، توّجت تحالفها وعلاقتها العضوية بالحركة الصهيونية باصدار وعد بلفور، بعد أن شعرت بتعرض مصالحها الشرق أوسطية للخطر، وبعد أن لاحت في الأفق «جهود الصهاينة الألمان للحصول على وعد ألماني باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين عام ١٩١٧. حتى أن هذا العامل كان من جملة العوامل الضاغطة على الحكومة البريطانية للتعجيل في إعلان وعد بلفور»(٦٤). كما أن أميركا لعبت دورها في هذا المجال عن طريق سفيرها في استانبول، مورغنتو، عندما ألقى خطابه في مدينة سينسيناتي الأميركية في أيار ١٩١٦، والذي جاء فيه أنه بالامكان وضع ترتيبات شراء فلسطين من الأتراك لصالح اليهود بعد انتهاء الحرب(٦٥). ثم كان دخولها الحرب رسميا في نيسان ١٩١٧، ضد ألمانيا وحليفتها تركيا.

وهناك عامل مهم لعب دوره في الاسراع في اعلان وعد بلفور، هو انخراط الشبان اليهود في روسيا في صفوف الحزب البلشفي بقيادة لينين الذي وقف ضد استمرار روسيا في الحرب، حيث كان من نتيجتها توقيع معاهدة بريست ـ ليتوفسك بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي بعد انتصار ثورة أكتوبر ١٩١٧. وهذا ما دفع الجنرال ماكدونف قائد المخابرات البريطانية إلى طلب الاسراع في إعلان فلسطين وطنا قوميا يهوديا لكي يتجه الشباب اليهودي نحو العقيدة الصهيونية الرجعية الموالية للاستعمار عوضا عن الانخراط في صفوف الأحزاب الثورية المعادية لبريطانيا. وقد أوضح «هايمان لومر» رئيس تحرير مجلة الشؤون السياسية الأميركية في كتابه عن الصهيونية «توافق ظهور الصهيونية مع موجة جديدة من العداء للسامية، مرتبطة بظهور الامبريالية الحديثة، وتطويرها للعنصرية إلى أقصى حد باعتبارها أداة ايديولوجية للقهر. وقد استجابت جماهير الطبقة العاملة اليهودية ـ وبخاصة في روسيا ـ بالانضمام إلى الحركة الثورية، والصراع دون هوادة ضد الصهيونية»(٦٦).

«ويعتبر وعد بلفور من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ، إذ منحت بموجبه دولة استعمارية أرضا لا تملكها [فلسطين] إلى جماعة لا تستحقها [الصهيونيين] على حساب من يملكها ويستحقها [الشعب العربي الفلسطيني]، مما أدى إلى اغتصاب وطن وتشريد شعب بكامله على نحو لا سابقة له في التاريخ»(٦٧). ولم يكن ذلك ليتحقق بهذه السرعة، لو لم يحل لويد جورج محل اسكويث كرئيس للوزراء، ولو لم يعين بلفور وزيرا للخارجية، ولتصبح المراكز الحساسة في الحكومة الانكليزية في أيدي صهيونيين متسلّحين بالهوية البريطانية.

كما يعتبر هذا الوعد المشؤوم بمثابة «جواز السفر» و «تذكرة المرور» لمشروع الوطن القومي اليهودي في فلسطين إلى حيّز الواقع العملي، باضفاء الصفة «الرسمية» الدولية عليه، وهذا ما سعى الصهيونيون طويلا لتحقيقه، حتى أنه أقرّ كهدف صهيوني أعلى في مؤتمر بال ١٨٩٧ مع التأكيد على «أن هدف الصهيونية هو خلق وطن في فلسطين للشعب اليهودي، يضمنه القانون العام»(٦٨). ومن المؤكد أن هذا «القانون العام» كان حكرا على الزعامة الدولية التي كانت تمثلها بريطانيا وفرنسا في تلك الفترة.

وكما كانت وثيقتا سايكس ـ بيكو ووعد بلفور، صهيونيّتي التوقيع والهدف، فقد كان لمؤتمر «الصلح والسلام» الذي عقد في باريس ١٩١٩ دوره الأكبر في تحقيق المزيد من أهداف الحركة الصهيونية عن طريق «الأربعة الكبار» الرئيس ويلسون عن أميركا، ولويد جورج عن بريطانيا، وكليمنصو عن فرنسا، وأورلندو عن ايطاليا. لكن انسحاب ويلسون من المؤتمر فيما بعد، وهامشية